7 مصادر نظرية النظم عند الجرجاني

لا شكّ أنّ كلمة النظم قد تردّدت كثيرا على لسان العلماء قبل عبد القاهر الجرجاني ت 471 ه بمئات السنين، وإنّما يرجع إليه الفضل في أنّه جعل منها – مستفيدا من سابقيه - نظريّة بلاغيّة كبرى تنتسب إليه؛ ذلك أنّ النظم - كما هو عنده - قد عرفه السابقون له "في وضوح تامّ حتّى يمكن القول إنّ عبد القاهر لم يضف إلى مفهوم النظم شيئا جديدا، ولكنّه في الحقّ جعل من هذا المفهوم إطارا عامّا تدور حوله البلاغة كلّها بأبوابها وفصولها وأقسامها

لم يكن أوّل من تطرق إلى موضوع النظم، وإنما كان حاصدا جامعا لأفكار سابقيه من أمثال **سيبويه** ت 180 ه، **وبشر بن المعتمر** ت 210ه، **والعتابي** ت 213 ه، **الجاحظ ت 255** ه، **وابن قتيبة** ت 276ه، **وابراهيم بن مدبّر** ت 279 ه، **والمبرّد** ت 285 ه، **وأبو بكر الصولي** ت 335 ه، **والسيرافي النحويّ** ت 358 ه، **وابن شهيد** ت 382 ه، **والرماني** ت 386 ه، **والخطابي** ت 388 ه، **وأبو هلال العسكري** ت 395 ه، **الباقلاني ت 403** ه **والقاضي عبد الجبار ت 415** وغيرهم في تحديد مفهوم النظم و إرساء أسسه من جهة، و ربطه بالإعجاز القرآني من جهة أخرى. فالنظم كما يقول ابن فارس: "النون والظاء والميم أصل يدل على تأليف شيء وتأليفه، ونظمت الخرَز نظما، ونظمت الشعر وغيره، والنظام الخيط يجمع الخرز". كما بيّن صاحب التعريفات حدّ النظم اصطلاحا فقال: هو "تأليف الكلمات والجمل مرتّبة المعاني متناسبة الدلالات، على حسب ما يقتضيه العقل، وقيل الألفاظ المرتبة المسوقة المعتبرة دلالاتها على ما يقتضيه العقل" غير أنّ هذا التعريف الدقيق جاء متأخرّا إذ ظهر في القرن التاسع الهجري.

أراء العلماء في النظم قبل عبد القاهر:

1 سيبويه :

يقول في "باب الاستقامة من الكلام والإحالة: فمنه مستقيم حسنٌ، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب" ويعطي لكل حالة جملة من الأمثلة توضّح رأيه في الموضوع كما في قوله: " فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتُك أمْسِ وسآتيك غداً، وسآتيك أمس"

حديثه عن إخبار النكرة عن النكرة حيث قال: "هذا باب تخبر فيه عن النّكرِة بنكرة وذلك قولك: ما كان أحدٌ مثلَك، وما كان أحدٌ خيراً منك، وما كان أحدٌ مجترئا عليك. وإنّما حَسُنَ الإخبارُ ههنا عن النكرة حيث أردت أن تَنفِيَ أنْ يكونَ في مثل حاله شيءٌ أو فوقه، ولأن المخاطَبَ قد يحتاج إلى أن تُعْلِمهَ مثلَ هذا. وإذا قلت كان رجلٌ ذاهِباً فليس في هذا شيءٌ تُعِلمهُ كان جَهِلَه. ولو قلت كان رجلٌ من آل فلانٍ فارساً، حسن؛ لأنه قد يحتاج إلى أن تعلمه أن ذاك في آل فلانٍ وقد يَجْهلُهُ. ولو قلتَ كان رجلٌ في قومٍ عاقلاً لم يَحسنْ؛ لأنه لا يستنكر أن يكون في الدنيا عاقل وأن يكونَ من قومٍ. فعلى هذا النحوِ يَحْسُنُ ويَقْبُحُ

بشر بن المعتمر والعتابي

يجد القارئ في صحيفة بشر بن المعتمر ما يفيد النظم في قوله: "فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ولا تسمح لك عند أول نظرك وفي أول تكلّفك، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها، ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها، نافرة من موضعها، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن، والنزول في غير أوطانها، فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور، لم يعبك بترك ذلك أحد" كما نجد عند العتّابي ما يدلّ على النظم في قوله "الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح؛ وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدّمت منها مؤخّرا، أو أخّرت منها مقدّما أفسدت الصورة وغيّرت المعنى؛ كما لو حوّل رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل، لتحوّلت الخلقة، وتغيّرت الحلية" وهذا هو النظم بعينه كما أشار إليه الجرجاني.

النظم عند الجاحظ:

الجاحظ بفكره الاعتزالي، لم يخرج عن شيوخه في تناوله لمسألة اللفظ والمعنى، وفي حديثه عن إعجاز القرآن الذي يقوم على ركيزتين هما:

- نظمه البديع،
- وصرف الله الفصحاء عن معارضته.

"...والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجميّ والعربيّ، والبدويّ والقروي، والمدنيّ. وإنّما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحّة الطبع وجودة السّبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النّسج، وجنس من التّصوير. وقد قيل للخليل بن أحمد: ما لك لا تقول الشّعر؟ قال: «الذي يجيئني لا أرضاه، والذي أرضاه لا يجيئني
يوظّف الجاحظ النظم إلى جانب السبك والتأليف والإفراغ وهي أوصاف يطلقها على حسن الصياغة اللفظية والانسجام الصوتي البديع، وهذه الصفات إنما تكون – في البداية - في نظم حروف الكلمات ومدى "تلاؤم مزاجها وانسجام أجراسها حتى تكون في خفتها ورشاقتها كالحرف الواحد، وتكون الألفاظ في تحدرها وسهولتها ولينها على اللسان كأنها لفظ واحد.

ابن قتيبة:

اهتم ابن قتيبة بالعلاقات النحويّة بين الفاظ العبارة، حيث نجده يفرد بابا لتأويل "الحروف التي ادّعى على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم، من ذلك (الحروف المقطّعة

المبرّد

أشار المبرّد أيضا إلى النظم في رسالته المسمّاة (البلاغة) التي أجاب فيها عن سؤال أحمد بن الواثق: "أيّ البلاغتين أبلغ؟ أبلاغة الشعر أم بلاغة الخطب والكلام المنثور والسجع؟ وأيّتهما عندك- أعزك الله- أبلغ؟ وأجابه المبرد: إنّ حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى واختيار الكلام، وحسن **النظم** حتى تكون الكلمة مقاربة أختها ومعاضدة شكلها، وأن يقرّب بها البعيد، ويحذف منها الفضول

هذه البحوث كانت موجودة قبل عصر الجرجاني ولا شكّ أنّه اطلع عليها وعلى غيرها جعلته ينشئ نظريّة النظم. ومن ذلك امتزاج الثقافات وتعصب كل فريق لمذهبه ولثقافته؛ فلليونان منطقهم وفلسفتهم، وللعرب ثقافتهم وتراثهم وبخاصّة التراث النحويّ وقد تناظرت الثقافات وتجادلت وكان الصراع بين هذه الثقافات على أشدّه مثلما رأينا ما حدث بين السيرافي وبين متّى، التي خلصت إلى أن المعاني هي معاني النحو بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب